ما بعد الحداثة : البديل المعرفي الجديد.

Postmodernism: the new alternative in knowledge.

نادية بوحاريش *

د/ فيصل الأحمر ♣

تاريخ الإرسال: 2020/08/20	تاريخ القبول: 26 / 11 / 2020	تاريخ النشر: 30 / 03 / 2021

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة الإحاطة بمفهوم ما بعد الحداثة، وأهم الرواد الفاعلين والمؤسسين له، مع محاولة الكشف عن المنطلقات الفلسفية والفكرية التي كانت بمثابة الأرضية والمهاد النظري لما بعد الحداثة.

وتكمن أهمية البحث في موضوع ما بعد الحداثة في اعتباره أحد المواضيع الشائكة والمتداخلة التي تسم هذا العصر، إضافة إلى كون أفكارها قد قامت في الفلسفة وتحليل الثقافة والمجتمع بتوسيع آفاق النظرية النقدية، حيت كانت بمثابة نقطة الانطلاق لعدة أعمال في الأدب، والنقد، والتاريخ، والثقافة، وقد سعت جاهدة من خلال ذلك كله إلى تحرير الإنسان من مقولات المركزية الغربية المسيطرة على تاريخه الحديث والمتحكمة في وعيه بالأشياء.

إن المنهجية المتبعة في مقالنا هذا هي عملية عرض البيانات وفق منهج استقصائي تحليلي نقدي، يعمل على تحليل المعطيات والآراء ونقدها.

الكلمات المفتاحية: التنوير،الحداثة، ما بعد الحداثة، السرديات الكبرى،جان فرانسوا ليوتار.

المؤلف المرسل: نادية بوحاريش nadia.bouhariche.18@gmail.com

*جامعة سطيف2 /الجزائر nadia.bouhariche.18@gmail.com

♣ جامعة جيجل/ الجزائر faycal_alahmar@yahoo.fr

Abstract:

The objective of this study is to uncover the concept of postmodernism and expose it clear and comprehensible terms, and also to present the most important founders of postmodernism, while trying to uncover the philosophical and intellectual premises that served as the theoretical ground and background of postmodernism.

The importance of research on the topic of postmodernism lies in considering it as one of the most significative topics that characterize this era, in addition to the fact that its ideas gained several active fields as philosophy and the analysis of culture and society broaden the horizons of critical theory, as it served as the starting point for several works in literature, criticism, history, and culture. Through all of this, it has strived to liberate man from the occidental-centralized discourses that dominate his modern history and control his consciousness of things.

The methodology used in this article is the process of presenting data according to an investigative, analytical and critical approach, which works on the analysis and criticism of data and opinions.

*** *** ***

. مقدمة:

شهد العالم الغربي منذ بدايات القرن التاسع عشر موجة من التغيرات الجذرية التي مست الأفكار، والنظم والمعتقدات، والثقافات بُغية تحطيم القواعد البالية، والقوالب الجاهزة التي شكلت صورة نمطية قارة في المجتمع والثقافة والأدب والسياسة والاقتصاد بحثا وتطلعا نحو عوالم أخرى جديدة يخرج في ظلها الإنسان الغربي من سطوة وسيطرة بعض القوى التقليدية التي رمت به في غياهب الجهل والتخلف، وشلت قدراته بتحديات واهية فقدت ضمنها الذات طاقاتها ورغباتها وصُودرت إمكاناتها الحيوية في ظل القوانين التعسفية الجائرة.

كل هذا تمخض عنه ما يُعرف بالمشروع الحداثي التنويري الذي شقت معه أوروبا درب العلم، والمهارة والتقنية أخرجها من بوتقة الظلام الحالك الذي خيم عليها في فترة القرون الوسطى، وبهذا دشنت الحداثة عصرا جديدا قادرا على الإنتاج والعطاء في مختلف المجالات، إنه عصر النهضة والحضارة والتقدم الذي بموجبه أصبحت

الشخصية الغربية الحديثة شخصية مُدمرة لا تعرف قيودا ولا حدودا، حيث لم تكتف بقهر الطبيعة واستنزافها بل اتجهت نحو بقية العالم نهبا لموارده وثرواته فكان العالم الثالث الفريسة والطريدة واللُقمة السهلة.

وبموجب هذا صار الاستعمار عماد الدّين الجديد لأوروبا لأنها وجدت فيه ضالتها لحل مختلف الأزمات فتحولت من كيان حداثي إلى كيان إمبريالي جبار متعطش للثروات والأيدي العاملة الرخيصة، وعلى إثر هذا تعرض المشروع الحداثي للإخفاق والفشل، وتعرضت معه الحداثة لتيار جارف من النقد والنقض أيضا، حيث تصدت لها العديد من تيارات الفكر المعاصر وناصبتها العداء واتهمتها بعدم مصداقية مشروعها لأنه كان مشروعا انتهازيا مُدمرا.

وبهذا تأتي ما بعد الحداثة بنزعتها الشكيّة لتكشف هشاشة العديد من المواقف الفلسفية والفكرية والعلمية الحداثية، وتعمل على نقدها لتثبت نفسها كأداة نقدية جديدة وتاريخية مستجدة تحاول استرجاع العديد من القيم.

وقبل الولوج في الحديث عن عالم ما بعد الحداثة المترامي الأطراف، الواسع الجوانب، لا بد لنا أن نتساءل أولا عن أسباب فشل المشروع الحداثي الذي أدى إلى تفكك الحداثة وضمور الزمن الحداثي ليتربع على أنقاضه الزمن ما بعد الحداثي بسمات ومعطيات جديدة وتيارات بديلة تُنافي وتُناقض في توجهاتها مبادئ التفكير الحداثي؟ ثم ماالمقصود بما بعد الحداثة؟ وما هي عوامل ظهورها؟ ومن هم أهم روادها؟ وماهي المنطلقات الفلسفية والفكرية والنقدية التي انبنى عليها الفكر ما بعد الحداثي؟

2.فشل المشروع الحداثي وتفكك الحداثة:

1.2. الحداثة وإنجازاتها:

صاغت الحداثة مسيرة المجتمعات الغربية نحو التطور والتقدم منذ عصر النهضةRenaissance (القرن14 حتى القرن17)، حيث أدخلت العلم والتكنولوجيا إلى

مختلف مجالات الحياة الاجتماعية الاقتصادية السياسية والأدبية مما أدى إلى انهيار مختلف القيم والمعايير الثقافية التقليدية، فالحداثة وفقا لهذا المنظور تشير إلى المستجد الذي يحمل التطور والانتقال الإيجابي حيث أن أكثر اللّحظات في التّاريخ أهمية وإبداعا هي تلك اللّحظات التغييرية الحداثية التي كشفت عن منطق خاطئ ومُضلل عرقل مسيرة التقدم الغربي لردح من الزمن.

مع الحداثة إذا، ظهرت عبقريات مبدعة، أدمغة مفكرة نيرة في مجالات العلم والفلسفة والفن والفكر "جاء ديكارت في مستهل القرن السابع عشر، ودشّن بفلسفته العقلية الأسس الفلسفية للعصر الحديث (...) وتنوعت المذاهب الفلسفية - إلى جانب المذهب العقلي- ما بين مذاهب تجريبية (لوكlocke وهيومHume)، ومذاهب نقدية (كانطKant) في القرن الثامن عشر الذي أطلق عليها اسم عصر التنوير The Enlightenment وتبلورت فيه السمات الأساسية للمجتمع الحديث، والمتمثلة في فكرة التقدم التّاريخي والإيمان الذي لا يحيد بقدرة العقل البشري على بلوغ التقدم الإنساني بصورة حتمية"[1].

وبهذا باتت الحداثة مشروعا حضاريا يقدم على عدة أسس منها الفردية العقلانية والوضعية، وإحدى السمات الجوهرية ذات الطابع التقدمي للحضارة الغربية فلقد كانت "العقلانية سبيل أوروبا إلى تحديث وتجديد فكرها بطريقة جذرية بعد ظُلمات القرون الوسطى، فتزامنت الحداثة مع انتصار العقل وإحداث قطيعة مع التّاريخ السابق، وبالتالي فإنها ترتكز على العقل الذي وصلت من خلاله إلى كل الإنجازات الحضارية المختلفة تاريخيا والمتطورة كليا"[2].

كما حلت الفلسفة الوضعية التي دعا إليها الفيلسوف "أوغست كونت" "Auguste Comte" خلال النصف الثاني من القرن 19 "محل الدّين، لأن العلم والعقل - في رأيه- وحدهما قادرين على أخذ البشرية نحو الحضارة والتقدم، ومن هنا بنت التّاريخانية الوضعية قوانين تطور التّاريخ على أساس مركزي"[3].

وعليه فلقد أنتج العقل الغربي إيديولوجيات متعالية، وفكرا مركزيا، حيث كانت لسلسلة التطورات التي شهدتها أوروبا اليد الطولى على حضارات أخرى نعتتها بالهامشية، لأنها -في رأيها- ذات دور ثانوي في صياغة المسيرة الإنسانية، بالإضافة إلى العامل الاقتصادي - الرئيسي- والمتمثل في حاجة أوروبا إلى مزيد من الموارد الأولية لرفع اقتصادها، الأمر الذي أدى إلى التفكير في الحصول عليها بأية طريقة.

2.2 . فشل المشروع الحداثي:

لقد أنتجت الحداثة الغربية شخصية إمبريالية "لم تكتف بهزيمة الطبيعة في أوروبا وإنما اتجهت نحو بقية العالم ممعنة في موارده نهبا واستنزافا، أصبحت شخصية براغماتية تتكيف مع الواقع وتعقد معه الصفقات، وفي موازاة الحوار والتسامح وقبول الآخر والعقلانية ظهرت العنصرية في الغرب، وأسست إيديولوجيات يقينية تستند إلى مبررات علموية صارمة، وقبول لمنطق الضرورات الإمبريالية والتمتع بثمرات الهيمنة والنهب"[4].

إن كل هذه الإخفاقات والأزمات التي جرّتها الحداثة للمجتمع الغربي أدت به إلى الفشل والانتكاس، فهو لم يجد لا في الليبرالية ولا في العقلانية أدنى الحلول، كل ما هنالك هو تمركز ثقافي عرقي، ونظرة استعلائية تجاه الآخر تروج لمزيد من الصراعات والتصادمات، "فلقد اصطدمت الحداثة بالحياة الواقعية: باللّحظة العابرة المعاشة، اصطدمت بتجربة القرن العشرين المريرة، إذ كانت حصيلتها لسعادة الإنسان حروبا ومشاحنات طاحنة واستعمارا وإرهابا وهيمنة وقمعا للآخر، وتفاوتا طبقيا واقتصاديا، وقمعا عسكريا، وقنابل ذرية وخطرا نوويا، إضافة إلى الظلم الاجتماعي وانهيار الثقة بفكرة المساواة والعدالة للجميع"[5].

فلقد كانت شعارات الحداثة شعارات مغرية برّاقة تبعث على التفاؤل والثقة في مصداقية مشروعها التنويري المنادي بالحرية والعدالة والمساواة والأخوة، غير أن هذه الشعارات مخادعة مخاتلة، لأنها تُظهر عكس ماتُبطن، إنها شعارات مثالية أفلاطونية

جرّت العالم إلى الانخداع بها وبأوهامها إلى أن أدّت به إلى حربين عالميتين مدمرتين فالتنوير في الأساس كان اعترافا بالآخر ليتم نفيه واستعباده والسيطرة التامة عليه.

واعتبارا لهذا الوضع أخذ مصطلح الحداثة في التراجع والتلاشي، حيث خفّ وهجه وتضاءلت قيمته وفعاليته بعد أن سطع نجمه وبقوة في مرحلة النهضة، ولقد ظهرت عدة أفكار تُدين وتنقض ما آلت إليه الحداثة معلنة انتماءها إلى عصر جديد هو العصر ما بعد الحداثي الذي غذى البديل المعرفي الجديد والمنطلق الإبستمولوجي الثوري الذي ينزع صوب مراجعة وتصحيح الإرث الحداثي عن طريق عملية هدم مُمنهجة وصارمة للميراث الثقافي الغربي .

وبهذا الشكل اكتسح مصطلح ما بعد الحداثة الفضاء الثقافي العالمي في وقت وجيز، مدشنا عصرا جديدا يُناقض في توجهاته ومراميه ما دعى إليه العصر الحداثي، فما بعد الحداثة تعد حركة متمردة مفككة لمرحلة خلت قائمة على هدم السابق لبناء اللّاحق، وهي بديل معرفي جديد ودّع كل يقينيات ومنجزات الحداثة وفرش أرضية صلبة له تلقي بضلالها على مختلف تيارات الفكر المعاصر.

وبهذا بدى جليا ذلك التحول الجذري من الحداثة إلى ما بعد الحداثة، هذه الأخيرة والتي تمتد - حسب أغلب الدارسين- من سنة 1970 إلى سنة 1990، وقد جاءت لتقويض دعائم الفكر الغربي الاستعلائي والمتمركز، ساعية وراء تفجير الهوامش والكشف عن هشاشة النظم العقلية اللبرالية وعن عجزها في تحقيق العدالة والحرية.

3. ما بعد الحداثة: المفهوم- الأسباب- الرّواد.

1.3. مفهومها:

اجتاحت الفكر المعاصر - خاصة في الثلث الأخير من القرن العشرين- اتجاهات فلسفية عديدة، وطفت على السطح عدة مسميات لتيارات فكرية متنوعة أطلق عليها جميعا تيارات"ما بعد الحداثة"، هذه الأخيرة التي اكتسحت كل مجالات وفروع المعرفة وبدأت تُستخدم على نطاق واسع، إذ أخذت تتردد على ألسنة وأقلام المثقفين على اختلاف توجهاتهم ومشاربهم"بشكل يمكن أن نصفه بأنه أصبح بدعة أو مُوضة عقلية

وليس غريبا أن ينطلق مصطلح الحداثة من باريس عاصمة الموضة وموطن البدع الفكرية"[6].

فلقد استقطب مفهوم "ما بعد الحداثة" post modernisme اهتمام الأدباء والنقاد، والفلاسفة، والفنانين باعتبارها ردة فعل على إخفاقات المشروع الحداثي، ولقد جاءت لتُعيد الاعتبار لما أهملته الحداثة وغيبته، وهي بالتالي تُعد بمثابة نقد ونقض للمبادئ والأسس التي قام عليها المجتمع الغربي الحديث منذ بدايات عصر النهضة وحتى منتصف القرن العشرين الذي ساهم في ظهور مختلف التيارات المضادة للحداثة التي نقضت كل مبادئها ومسلماتها، وبهذا كانت ما بعد الحداثة عملية إصلاح لمسارات التيارات الحديثة التي جمحت في طموحاتها العقلانية، فلقد جاءت كثورة على فكر التنوير والحداثة عن طريق رفض جميع السرديات الكبرى التي قامت عليها الحداثة الغربية، وذلك بالتشكيك في جميع الصروح الفلسفية والفكرية.

"ويرى بعض المفكرين أن مفهوم ما بعد الحداثة مفهوم تنظيمي يفيد في تحديد الحقب الفكرية مهمته الربط بين ملامح جديدة في الثقافة، ويبدو أن هذا المفهوم مرتبط بظهور نظام اجتماعي اقتصادي جديد ساد في الخمسينيات والستينيات"[7].

وبهذا تكون ما بعد الحداثة مشروعا فكريا واتجاهات نقدية، ورُؤى جديدة في الثقافة لعالم جديد مختلف عن العالم الحداثي.

وتتجلى ظاهرة ما بعد الحداثة "في ميادين عديدة من النشاط الثقافي مثل الهندسة المعمارية، والأدب، والتصوير الفوتوغرافي والفيلم والفن التشكيلي والفيديو والرقص والموسيقى"[8]؛أي أنها مظلة واسعة تُلقي بضلالها على مختلف تفرعات النشاط الثقافي الذي يشمل كل ما يتعلق بالمعرفة الإنسانية على اختلاف فروعها.

"ويمكن التمييز بين استخدامات رئيسية ثلاث لمصطلح ما بعد الحداثة، أحدهما في مجال تاريخ الفن وفن العمارة، والثاني في نطاق الفلسفة وما يستتبع ذلك

من جدل، والاستخدام الثالث في نطاق أكثر عمومية يتصل بالثقافة المعاصرة، وظهر هذا المصطلح إبان أواخر الستينات من القرن العشرين"[9].

فما بعد الحداثة هي مجموعة من وجهات النظر المختلفة التي تسعى للبحث عن خيارات جديدة، ولقد كان لها أثر واضح في العديد من المجالات، ولمصطلح ما بعد الحداثة استخدامات رئيسة ثلاث: الأولى في مجال الفنون والعمارة، فلقد تجسد مصطلح ما بعد الحداثة في أول ظهور له في الفن المعماري، حيث ثارت على المواد والأشكال التقليدية في الهندسة المعمارية، والاستخدام الثاني في مجال الفلسفة، إذ تعد ما بعد الحداثة بمثابة رد فعل ضد الافتراضات والقيم الفلسفية التي وُجدت في الفترة الحديثة من التّاريخ الغربي، أما الاستخدام الثالث وهو الأكثر عمومية، فيتصل بالثقافة المعاصرة وكل تبعاتها المعرفية، حيث تقوم بتحدي مجموعة واسعة من الأنساق محاولة إلغاء الفوارق بين الثقافات العليا والدنيا، وقد تجسد هذا في أواخر الستينات من القرن العشرين.

"واعتمادا على توجهات ما بعد الحداثة واستراتيجياتها ومنهجيتها وطروحاتها الفكرية والفلسفية، يمكننا تقسيمها إلى أربعة نماذج واضحة، فهناك المنظور التّاريخي الذي يراها حركة ابتعاد عن الحداثة، أو رفضا لبعض جوانبها، وهناك المنظور الفلسفي الذي يراها تقوم على الفراغ الذي أوجده غياب وتقويض الحداثة، أما المنظور الإيديولوجي السياسي، فهو يرى أهمية ما بعد الحداثة من خلال نتائجها، إذ هي قادرة على خلق الإشكاليات ضمن المسلمات حتى يتسنى لها خلخلة الثقة بما لم يكن سابقا يقبل الشك، أما من المنظور الاستراتيجي النصوصي فتسعى ما بعد الحداثة إلى تأصيل النص وانفتاحه وإنكاره للحد والحدود مما يجعله يقبل التأويل المستمر"[10].

وبهذا نقول إن ما بعد الحداثة تُعد بمثابة رفض لكثير من اليقينيات الثقافية التي بنيّت عليها الحياة في الغرب عبر القرنين الماضيين، ولقد جاءت ردّا على الحداثة وتجاوزا لها، ولعل من سماتها الخرق والتشظي والانفتاح والتّعدد، حيث "غيرت من القوالب الجاهزة وبعثرت القواعد والقوانين والأنظمة التي تبني الخطابات الفكرية والفنية والعلمية أيضا، هذه الخطابات هي خطابات الفنانين مثلا والتي تتجسد في

أعمالهم (نحت، فن تشكيلي، سنيما...) أو خطابات العلماء (نظريات وصفية، تجريبية، متخيلة...)، أو خطابات المفكرين والمثقفين (كتب أدبية، سياسية ومواقف...)"[11].

وبهذا شكلت العديد من المعتقدات والطروحات الفكرية والنقدية منبرا لها في ظل ما بعد الحداثة، تعمل من خلاله على تحدي كل السُبل ووجهات النظر الرّاسخة التي راكمتها الحداثة، وذلك بتحطيم المقولات المركزية التي هيمنت قديما وحديثا على الفكر الغربي، ولقد برهنت ما بعد الحداثة على أخطاء وسلبيات العقل الغربي المتمركز على ذاته وغاصت في نقد فلسفة الحداثة التي بنت العالم وفق رؤيتها الخاصة، وقولبته في صورة نمطية، وبهذا ساهمت ما بعد الحداثة في انبجاس فكر جديد أفسح المجال الرحب للثقافات المهمشة لاستعادة فاعليتها ودورها المغيّب إبّان الزمن الحداثي المُسيطر.

3.2.أسباب ظهورها:

بعد فشل المشروع الحداثي الذي حمل وُعودا بالمساواة والحرية والعدالة لم تتحقق، تصاعد ذلك الموقف النقدي من الحداثة الرافض لكل ادعاءاتها المركزية التي جعلت العالم يدور في قطب واحد، وصارت مصدرا للاستعباد والاضطهاد والقمع وتسبب هذا في التحول من الحداثة إلى ما بعد الحداثة، ولقد كان وراء ظهور هذا التيار عاملان أساسيان:

"أولهما: الشعور بالإحباط وخيبة الأمل اللّذين تولدا لدى المجتمعات الغربية نتيجة إخفاق الحداثة في أن تحقق السعادة والأمن للإنسان، بل على العكس من ذلك تسببت في إلحاق الدمار به عن طريق حربين عالميتين وحروب أهلية كثيرة في أنحاء عديدة من العالم خلفت كمّا هائلا من التدمير المادي والمعنوي للجنس البشري.

ثانيهما: التحولات التكنولوجية وثورة المعلومات نتيجة التقدم العلمي والتقني المذهل، وقد صاحب هذه التحولات تغيرات في النظام الاقتصادي والاجتماعي والثقافي عملت على إنتاج مجتمع جديد"[12]

وعليه كانت هذه الأسباب بمثابة الإرهاصات الفعلية التي آذنت بولادة فكر جديد، وتبلور أفق معرفي مُغاير يُشكك في جميع المعارف البشرية خاصة ما يتعلق منها بالحياة العقلية والعلمية والتكنولوجية، فلقد أدى العلم الحديث إلى الإعلاء من شأن القوة وتبريرها، وبدا واضحا للعيان ذلك التناقض الذي وقع فيه، فكما يقول الناقد **"عبد الله الغذامي"**: "ضاعت القناعة لأن المنجز أقل من المأمول والمتوخّى، وهذا ما جعل بعض المفكرين يقول إن هناك أسبابا لعدم الثقة بالحداثة وادعاءاتها الأخلاقية ومؤسساتها المعرفية وتأويلاتها العميقة"[13]، لأنها أفضت إلى مأزق فكري وعملي وروحي حيث أظهرت اهتماما ضئيلا بالأبعاد الروحية والميتافيزيقية للوجود البشري فكانت الحاجة جد مُلحة لطرح ما بعد الحداثة كبديل معرفي جديد يأخذ بعين الاعتبار ما أهملته الحداثة، بما في ذلك"مجموعة الانطباعات البشرية الأساسية كالعواطف والانفعالات والحدس والانعكاسات النفسية والتأمل والتجربة الذاتية والعادات الخاصة، وما إلى ذلك كالعنف الذاتي والولع الروحي، وكل ما هو ميتافيزيقي أوسحري مع تقدير للوجدان الديني والتجربة الروحانية، كل ذلك يأخذ اهتماما يتجدد في مرحلة ما بعد الحداثة"[14]،التي عكفت على الاهتمام بالأبعاد الروحية، وأعادت الاعتبار إلى كل ما هو عُرفي ولا عقلاني، ودعت إلى خلق أساطير جديدة تتناسب مع مفاهيمها وطروحاتها التي ترفض النماذج الشمولية المتعالية، وتضع محلها الضرورات الروحية.

ومن البواعث الأساسية كذلك التي انطلقت ما بعد الحداثة للثورة عليه صُلب ما يأخذه "**إنريك دوسل**" "Enrique Dussel" على أنه "جريمة المشروع الحداثي الكبرى في حق الشعوب الأصلية، أوأسطورته اللاعقلانية...خرافته الآثمة، وهو ببساطة إقصاء الآخر ورفض التعددية الثقافية، الأنا الغربية المركزية فقط"[15].

إن "**إنريك دوسل**" "Enrique Dussel" من وراء قوله هذا نجده يصبّ جام غضبه على الحداثة ويتّهمها بالإجرام، لأنها كانت مشروعا أحاديا وإقصائيا متمركزا على ذاته، ولا يعترف بالآخر الأصلاني، بل يهمشه ويخرجه من دائرة العلم والمعرفة مُوصدا بذلك الأبواب لقبول التعددية الثقافية، التي بموجبها تتلاقى الثقافات وتتلاقح فانطلاقا

من المأزق الذي وقعت فيه الحداثة جاءت ما بعد الحداثة كبديل معرفي تصحيحي لتقوّم اعوجاج مبادئ وأهداف الحداثة.

وعليه نقول إن كل أفكار ما بعد الحداثة يمكن اعتبارها "مؤشرا على تحول فلسفي هيمن على المنظومة الثقافية الغربية، هذه الأفكار الموغلة في استبعاد الذات الإنسانية وتهميشها، أو زحزحتها عن مركزيتها الأنطولوجية كانت من الأسباب التي أدت إلى التحولات الكبرى الذي دفعت إلى التمرد على الشكل التقليدي والقيم الجمالية الكلاسيكية"[16]. إذ يعد الفكر ما بعد الحداثي الأرضية الأولى لتحطيم المركزيات الثقافية، وظهور فكرة التعددية الثقافية التي تحتفي بجميع الذوات الإنسانية، حيث تتميز ما بعد الحداثة بقوة التحرر من قيود التمركز والانفتاح على الغير عبر الحوار والتفاعل وهدم كل الصروح الفكرية والفلسفية التي صاغتها الحداثة الغربية.

3. 3. روادها:

يوجد العديد من رُواد الفكر ما بعد الحداثي الذين عملوا على خلخلة الثوابت والمسلمات التي بُنيت عليها الفلسفة الحداثية الغربية، حيث كانت مهمتهم هدم أعراف وإيديولوجيات القوى الثقافية التي سيطرت على العالم الغربي في القرن العشرين، وإثارة الاضطراب في الكثير من اليقينيات القديمة المحيطة بمسألة القيم الثقافية، ومن أهم الأسماء التي ساهمت في تشكيل ما بعد الحداثة الأمريكي "**فريدريك جيمسون**" "Fredric Jameson"والفرنسيان "**جان بودريار**" "Jean Baudrillard"و"**جان فرانسوا ليوتار**" "Jean François Lyotard"، بالإضافة إلى أسماء أخرى كان لها الفضل في طرح العديد من أفكار وطروحات الفكر ما بعد الحداثي مثل "**ميشيل فوكو**" "**Michel Foucault**"، "**جاك دريدا**" "**Jacques Derrida**" ، "**جيل دولوز**" "**Deleuze Gilles**" "**لويس ألتوسير**" "Louis Althusser"....ومع هؤلاء جميعا غيّر الفكر ما بعد الحداثي المشهد الثقافي العالمي في أواخر القرن العشرين.

"فلقد كانت الفلسفة لاسيما الموروث الفلسفي الحديث الموضع الأساسي الذي دار فيه النقاش المتعلق بما بعد الحداثة، كما كانت مصدر كثير من النظريات التي

تشكل ما بعد الحداثة، وربما كانت الشخصية الأساسية في هذا المضمار هي شخصية جان فرانسوا ليوتار"[17]، هذا الأخير والذي يعد أحد أهم آباء ما بعد الحداثة ورائد تنظيرها، نظرا لما أنتجه من أعمال في هذا السياق، حيث ترسخت مكانتها في ثقافة ما بعد الحداثة بوصفه واحدا من أبرز مفكريها الأكثر تأثيرا.

3. 3. 1. جان فرانسوا ليوتار" "Jean François Lyotard ":

يعد الفيلسوف والمفكر الفرنسي **جان فرانسوا ليوتار" " Jean François Lyotard** أحد الرواد الفعليين والأوائل الذين تصدروا الواجهة كأعلام للفكر ما بعد الحداثي،فهو"ينتمي إلى عهد رغب مفكروه في مراجعة كل المكتسبات الفكرية والسياسية التي تحولت بفعل الزمن إلى قوانين ادّعت امتلاكها للحقيقة ومن ثم للسلطة، نهاية هذه الخطابات الإطلاقية هي التي أنتجت لحظة جديدة في تاريخ الفكر الغربي، حيث انهدمت كل فلسفات التّاريخ التي تعتقد أنه بالإمكان التنبؤ بمستقبل الإنسانية وتحديد مصيرها سميّت هذه اللّحظة بما بعد الحداثة"[18]، هذه الأخيرة التي شهد العالم معها تفككا لمختلف المذاهب والنظريات والاتجاهات الفكرية الكبرى في المعرفة الأدبية والعلمية والثقافية باعتبارها مفهوما نقديا للفكر السابق يسعى إلى تحطيم السلطة القاهرة للأنساق الفكرية الكبرى المسيطرة.

فالفيلسوف "**جان فرانسوا ليوتار" " Jean François Lyotard**" ينتمي إلى ما يمكن تسميته ظاهرة تدمير ما عُرف بمشروع عصر التنوير The Enlightement وهو "موقف عقلي عاشته الفلسفة الغربية ويمكن اكتشافه من خلال كتابات فلاسفة القرنين17 و18، أين أعطى مفكرو التنوير قيمة كبرى لسلطة العقل -خاصة العلم- لإزالة غموض العالم، والمعتقدات الخرافية والأساطير والدّين ويبحث فلاسفة التنوير عن الحقائق التي يمكن أن تقود نحو التقدم، بمعنى تحسين حالة الإنسان، وشعار الثورة الفرنسية مساواة– حرية– أخوة، يلخص بطريقة جيدة الأجندة الأخلاقية- السياسية لعصر التنوير "[19].

فالتنوير بهذا المعنى حركة فلسفية ثقافية وعنوانا على نسق فكري هيمن على مرحلة تاريخية من تاريخ الفكر الأوروبي، هدفه الارتقاء بالعقل وتنويره بإخراجه من براثن الجهل والتخلف، وإعادة نور الحضارة والمدنية الذي انطفأ في فترة العصور الوسطى، ولقد قام "**ليوتار**" "**Lyotard**" بنقد مشروع عصر التنوير الذي " قام على ركنين هما: العقل والذات العاقلة، فالعقل يجب تحطيمه، والذات يجب إزاحتها من مركز الدائرة في التفكير عموما، والتفكير الفلسفي خصوصا"[20]، وبهذا يرى "**ليوتار**" "**Lyotard**"أن مقولة التنوير قد سقطت وباءت بالفشل، ولم يعد بالإمكان أن نعطي ثقتنا لها، لأنها خيّبت آمال المجتمع الغربي ووصلت به إلى الباب المسدود وإلى الدمار والخراب واللّاعدالة، وكل ملامح الآبارتيد والقهر.

ويعد كتاب (**أحوال ما بعد الحداثة: تقرير عن المعرفة 1979**) أقوى تعبير نظري عن ما بعد الحداثة، حيث لعب دورا محوريا في إطار ما بعد الحداثة، ولقد زعم "**ليوتار**" "**Lyotard**"من خلاله"أننا نعيش الآن حقبة تمر فيها النصوص السردية الرئيسية المشرعة بأزمة وتشهد تراجعا تضم الفلسفات الكبرى مثل: الكانطية والهيغيلية والماركسية، إذ تزعم هذه الفلسفات أن التّاريخ تقدمي، وأن المعرفة ستحررنا وأن وحدة خفية تجمع بين أشكال المعرفة، يهاجم ليوتار سرديتين رئيسيتين: السردية التي تدفع بالتحرر التدريجي للبشرية - بدءا من الخلاص المسيحي إلى اليوتوبيا الماركسية- والسردية التي تتناول انتصار العلم، يرى ليوتار أن هذه المعتقدات قد فقدت مصداقيتها منذ الحرب العالمية الثانية"[21].

واعتبارا لهذا يهاجم "**ليوتار**" "**Lyotard**" السرديات الكبرى Grand Narratives التي سيطرت على الفكر الغربي منذ القرنين الماضيين كالليبرالية والماركسية والاشتراكية لأنها لم تحقق السعادة للإنسان، وبالتالي ينبغي التخلي عنها، والمقصود بالسرديات الكبرى النظريات الكونية الشاملة للثقافة الغربية"، ويستخدم هذا المصطلح للدلالة على القصة الشاملة أو الميثاسردية التي تدعي صلاحية كونية وتكون بمثابة خطاطة أساسية تبرر وتفسر جوانب الحياة بكل مستوياتها وأصنافها، وكأمثلة على ذلك: الماركسية المسيحية والعلم"[22]، والتي حاولت أن تشكل الإطار الشامل والكوني للثقافة

والمجتمع والسياسة، مشكلة جزءا لا يتجزأ من الحداثة، ولهذا يرى "**ليوتار**" "**Lyotard**" بأنه يجب التشكيك في مصداقية هذه السرديات الكبرى المهيمنة " إذ ينطوي الظرف ما بعد الحداثي على فقدان الثقة في الخطابات الأصولية التي بررت المشاريع العقلانية والعلمية والتكنولوجية والسياسية للعالم المعاصر، ولا وجود لسرديات كبرى منتهية الصلاحية، أو وجهات نظر متعالية تنطق بالحقيقة الكونية، بل يجب أن نقاوم هذا الإرهاب الشمولي لهذه الدوغمائيات لصالح الاحتفاء بالاختلاف والفهومات المحددة ضمن أنظمة معرفية خاصة"[23].

إن الجّدة في سياق الظرف ما بعد الحداثي تتمثل بنهاية السرديات الكبرى والتشكيك في ادعاءاتها التي عملت على إضفاء شكل من الشرعية أو السلطة على الممارسات الثقافية.

واعتبارا لهذا يعد الفيلسوف"**جان فرانسوا ليوتار**" " **Jean François Lyotard**" رائد تنظير ما بعد الحداثة"، والممثل الرئيسي لذروة الفكر ما بعد الحداثي المثير للجدل حيث وصلت فلسفته إلى جمهور أكاديمي عريض خارج فرنسا من خلال تقريره عن المعرفة المسمى بالوضع ما بعد الحداثي، وهو وصف للحالة الثقافية للمجتمعات المتطورة جدا"[24].

وعليه فإن الفيلسوف "**جان فرانسوا ليوتار**" "**Jean FrançoisLyotard**"يعد صاحب شأن كبير في الكشف عن أبعاد حركة ما بعد الحداثة، حيث ألّف العديد من الكتب التي ساهمت في إرساء قواعد الفكر ما بعد الحداثي، ليكون بذلك إحدى الشخصيات الأكثر أهمية في الفلسفة الفرنسية المعاصرة.

4. ما بعد الحداثة: المنطلقات الفلسفية والفكرية:

4. 1. نيتشه وبوادر تشكل الفكر ما بعد الحداثي:

ترك الفيلسوف الألماني "**فريدريك نيتشه**" "**Friedrich Nietzsche**" بصمات واضحة في المسار الفلسفي والنقدي لرواد ما بعد الحداثة، لأنه يعد أحد كبار المفكرين

الذين دشنوا النقد الجذري للحداثة في الغرب، وعملوا على معارضة العقل الغربي ومناهضته، فلقد ظهرت عدة "أفكار تُدين ما آلت إليه الحداثة بعد ثلاثة قرون من مسارها التّاريخي، ودشن نيتشه هذا النقد الجذري للحداثة الغربية، وانطلقت بعده تيارات كثيرة في القرن العشرين اتبعت هذا المنهج النقدي للحضارة الغربية، وكان من أبرز هذه التيارات النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت التي أخذت على عاتقها نقد ما أطلقت عليه اسم "العقلانية الآداتية"، وصبّت جام غضبها على عقل التنوير بكل ما نتج عنه، هذا إلى جانب تيارات أخرى عديدة عبّرت عن السخط والتمرد على التقدم التكنولوجي في المجتمعات الصناعية الرأسمالية، وعلى العقلانية الآداتية التي أتت بها الحداثة الأوروبية منذ عصر النهضة"[25].

وبهذا كان الفيلسوف "**نيتشه**" "**Nietzsche**" مرجعا هاما للعديد من التيارات الفكرية والنقدية الذي ظهرت في القرن العشرين، خاصة تلك التيارات النقدية لمدرسة فرانكفورت التي تشكل انعطافة هامة في مسيرة الفكر الأوروبي الحديث، كونها حاولت القيام بممارسة نقدية جذرية للحضارة الغربية في ضوء تلك التحولات الأساسية الكبرى التي أفرزتها الحداثة في عصر الأنوار، هذا التوجه النقدي الجديد الذي بلورته مدرسة فرانكفورت بمختلف فروعها وأجيالها، حاول جاهدا إيجاد بديل نظري نقدي يسعى إلى إعادة النظر في أسس الحضارة الغربية بكل جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفي المفاهيم والقيم التي تأسست عليها هذه الحضارة.

واعتبارا لهذا يؤكد معظم كتّاب ما بعد الحداثة أن "نيتشه" هو من شق الطريق نحو ما بعد الحداثة كمفهوم فلسفي، فلقد كان "أول من وجه النقد الكلي الشامل للمجتمع الحديث ونظر إلى القيم التراثية نظرة عدمية، وكان هذا النقد هو البداية الحقيقية لكل التيارات النقدية التي ظهرت بعد نيتشه وبلغت ذروتها في تيار ما بعد الحداثة (كمفهوم ثقافي) وقد ساعدهم على هذا إعلان نيتشه نفسه بأنه فيلسوف في غير أوانه، وتقديمه نموذجا للفلسفة يختلف تمام الاختلاف عن غيره من الفلاسفة المحدثين، وهجومه على الحداثة، وتنبؤه بقرن جديد قادم مفعم باللاعقلانية والخطر

فضلا عن أن تعريفه لفلسفته بأنها مقدمة لفلسفة المستقبل، وربما كان إيذانا بتغيير جذري ونقطة تحول من الحداثة إل ما بعد الحداثة"[26].

وبهذه الصفة يمكن اعتبار "**نيتشه**" "**Nietzsch**" الأب الروحي لما بعد الحداثة ورمزا للثورة والتغيير في عصور التحول الكبرى، فقد كان يحلم ببناء مجتمع آخر بديل له قدرات وإمكانات في التنوع، وخيارات وأساليب حرة تقضي على فكرة الأساس والأصل الذي يؤدي إلى التمركز والهيمنة، وهو بهذا يعد "من السلف الذين كانت كتاباتهم بمثابة البشارة لقدوم الما بعد حداثية، أما أفكاره فكانت نقدا وهدما للثقافة الغربية في زمانه كلّها، لذا عرفت بالعدمية فالفيلسوف الحقيقي برأيه هو حامل المطرقة الهدّام"[27].

وبهذا حاول "**نيتشه**" "**Nietzsche**" هدم كل المبادئ والأسس التي تقوم عليها الميتافيزيقا الغربية، للخروج من مركزة الذات وإعلاء دور ذوات أخرى، كاشفا عن بداية جديدة لتاريخ جديد، فقد كان "نيتشه" "Nietzsche" البادئ بتفكيك التراث "ورائد التدمير الغربي، وقد استخدم النزعة العدمية للقيام بهذه المهمة، وأخضع الموضوعات الفلسفية والميتافيزيقية للتحليل الجذري، واختار لذلك منهج الغوص في أعماق المفاهيم والبحث عن الأصول وتتبع نشأتها لإثبات زيفها ووضاعتها ولا عقلانيتها، وقد كان كل هذا وغيره إغراء شديدا باعتباره نبي ما بعد الحداثة والناطق باسمها"[28].

واعتبارا لهذا كان "**لنتشه**" "**Nietzsche**" الأثر الكبير على فكر ومنهج كتّاب ما بعد الحداثة، وتبلور هذا التأثير في منهجين أساسين ميّزا تيار ما بعد الحداثة، وهما المنهج التفكيكي الذي تزعمه "**جاك دريدا**" "**Jacques Derrida**" والمنهج الأركيولوجي الذي مثله "**ميشيل فوكو**" "**Michel Foucault**".

لقد كان التدمير الذي قام به "**نيتشه**" "**Nietzsche**" للتراث الغربي البداية الفعلية لطريق جديد غير مسبوق لنظام ثقافي مُغاير، إذ أن ما وصل إليه "**نيتشه**" "**Nietzsche**" هو ما تستمد منه اليوم نظريات ما بعد الحداثة حججها وطروحاتها، حيث قام من خلال فكره وفلسفته التدميرية العدمية بالتأثير في العديد من الفلاسفة والمفكرين - هوسرل بفلسفته الظاهراتية وهيدجر بفلسفته الوجودية- الذين حملوا

مشعله، وساروا على نهجه وخطاه، فكانت أفكارهم بمثابة أرضية للتفكير ما بعد الحداثي الذي عمل على خرق وتجاوز قيم الفكر الغربي الحداثي الذي تعثر وسقط في سراديب المركزية والقطبية الأحادية، متجاهلا دور الذوات الأخرى في تفعيل ودفع حركية التّاريخ، حيث شلت الذات الغربية باقي الذوات الأخرى، وأخرجتها من دائرة التفكير لتستعيد هذه الأخيرة مع مختلف تيارات ما بعد الحداثة مكانتها وتنطلق نحو تقديم اقتراحات وبدائل جديدة تودّع مقولات الحداثة، وتنضوي تحت مظلة الفكر ما بعد الحداثي.

5.خاتمة :

لقد أفضى بنا البحث في نهاية المطاف إلى استخلاص جملة استنتاجات نحصرها فيمايلي:

_لكل من الحداثة وما بعد الحداثة تاريخ طويل ليس له بداية محددة ولا نهاية، فالحداثة حداثات (فرنسية، انجليزية...)، كما أن مابعد الحداثة وجدت في الماضي أيضا من خلال شخصيات ما بعد حداثية وستوجد في المستقبل هي والحداثة كذلك لأنهما تحددان تلك النظرة الدورية للتاريخ الثقافي، حيث تستمر مابعد الحداثة والحداثة في التعاقب عبر الزمن في تتابع لانهائي.

_ إن أفضل السبل إلى فهم ما بعد الحداثة هو النظر إليها على أنها معارضة وردة فعل ضد الحداثة ومعطياتها، فلقد ثارت ما بعد الحداثة ضد كل المفاهيم والنظريات السابقة، واستطاعت أن تُغير في موازين القوى وتُعيد الكفة لصالح ما كان مُهمشا وفي دائرة الإهمال والإبعاد، وبالتالي فهي تسعى جاهدة إلى دفع قضية التحرر والانعتاق من خلال ما تراه جهدا نظريا موجها لإقصاء وإسقاط الهيمنة.

_ إن الدور الريادي الذي قامت به ما بعد الحداثة تمثل أساسا في ممارستها نقدا كليا للعقل الغربي والعمل على نقض وتفكيك البنى الفكرية لمذاهب هذا الفكر المتمركز على ذاته من حيث مبدئه وهدفه، وهذا ما أدى إلى احتشاد الساحة النقدية - في نهاية السبعينات- باتجاهات نقدية جديدة وأخرى أعيد إحياؤها وبعثها من جديد، ولعل

السمة المشتركة بين هذه الاتجاهات النقدية كلها هو انضواؤها تحت مظلة الفكر ما بعد الحداثي ولقد تمثلت هذه الاتجاهات في: التّاريخانية الجديدة المادية الثقافية الماركسية الجديدة،النقد النسوي، النقد الثقافي، ما بعد الكولونيالية....وغيرها من الاتجاهات التي تسعى إلى تحرير الفكر الإنساني من مختلف قيود الفكر الغربي المتمركز للانطلاق صوب آفاق غير محدودة نحو تأسيس معرفة جديدة أكثر صلابة، ومنه التحرر من مختلف سلطات الخطاب، فالإنسانية اليوم باتت في طور انتقالي تحتاج معه إلى صوغ مفاهيم جديدة أكثر تفتحا وانعتاقا بغية إخراج الإنسان من النسق الفكري الذي حوله إلى ماهية عقلية مجردة.

_ تعد ما بعد الحداثة أسلوبا ونمطا جديدا في الثقافة، يعكس شيئا من التغيير التّاريخي الذي حدث في الفكر الغربي، ويسعى إلى فتح مجالات صنع الثقافة للجميع بمختلف مستوياتها، فمنذ منتصف الثمانينيات أخذت مقاربات ما بعد الحداثة تتلقف شفرات التغيير، فظهرت أنساق ورؤى مغايرة اتجهت نحو كسر الأنماط السائدة، وزعزعة اليقينيات والثوابت المبنية على ادعاء القدرة على تفسير كلي للظواهر، بإعادة الاعتبار للحس وللأدوات الفردية والاهتمام بالهامش والغريب والمختلف والعناية بالعرق والجنس واللّون، فما بعد الحداثة وفقا لهذا المنظور هي دعوة إلى طريقة جديدة في التفكير تعمل على قلب مقولات الحداثة وفرضياتها قلبا تاما، إذ لا وجود في ظلها لثقافات لا تؤمن بالفواصل والفوارق الثقافية المعرفية الشيء الذي جذب العديد من التيارات الفكرية للانضواء تحت سقفها وإعلان الانتماء والولاء لها.

الهوامش:

1- عطيات أبو السعود: نيتشه وما بعد الحداثة، مجلة النقد الأدبي فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد 63، 2004، ص47.

2- وسيلة سناني: في نظرية التداخل الثقافي، دار فضاءات للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2016، ص 13.

3 - المرجع نفسه، ص 16 .

4- عبد الغني عماد: سسيولوجيا الثقافة (المفاهيم والإشكاليات...من الحداثة إلى العولمة)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان ،2006، ص 223.

5- ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا)، المركز الثقافي العربي، ط3،الدار البيضاء، المغرب،2002،ص 226.

6- عطيات أبو السعود: نيتشه وما بعد الحداثة، ص 4

7- مادان ساروب : دليل تمهيدي إلى ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة، تر: خميستي بوغرارة، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، د.ط، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر ، 2003، ص 171.

8- ليندا هتشيون: سياسة ما بعد الحداثية، تر: حيدر حاج إسماعيل، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2009، ص 65-66 .

9- ستيوارت سيم: دليل ما بعد الحداثة (ما بعد الحداثة: تاريخها وسياقها الثقافي)، تر: وجيه سمعان عبد المسيح، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، مصر، 2011، ج1، ص32.

10- ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا)، ص228.

11- جان فرانسوا ليوتار: في معنى ما بعد الحداثة (نصوص في الفلسفة والفن)، تر: السعيد لبيب، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء المغرب، 2016، ص8.

12- عطيات أبو السعود: نيتشه وما بعد الحداثة، ص49.

13- عبد الله الغذامي: النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 2001، ص40.

14- المرجع نفسه، ص39.

15- ليندا لانغ: القرابين المحروقة للعقلانية (قراءة نسوية لبناء الشعوب الأصلية في نظرية إنريك دوسل عن الحداثة)،مقال ضمن كتاب: أوماناريان وساندرا هاردنغ: نقض مركزية المركز، الفلسفة من أجل عالم متعدد الثقافات بعد- استعماري ونسوي، تر: يمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، د.ط، الكويت، يناير 2013،ج2، ص120.

16- هويدا صالح: الصورة الروائية للمثقف، مجلة العربي، وزارة الإعلام بدولة الكويت، ع 657، أغسطس 2013، ص156

17- ستيوارت سيم: دليل ما بعد الحداثة (ما بعد الحداثة: تاريخها وسياقها الثقافي)، تر: وجيه سمعان عبد المسيح، ج1، ص11.

18- جان فرانسوا ليوتار: في معنى ما بعد الحداثة (نصوص في الفلسفة والفن)، تر: السعيد لبيب، ص11 .

19- كريس بركر: معجم الدراسات الثقافية، تر: جمال بلقاسم،دط، جامعة جيجل/الجزائر، دت، ص112.

20- ليندا هتشيون: سياسة ما بعد الحداثية، تر: حيدر حاج اسماعيل، ص20.

21- كريستوفر باتلر: ما بعد الحداثة (مقدمة قصيرة جدا)، تر: نيقين عبد الرؤوف، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، مصر، 2016، ص19.

22- كريس بركر: معجم الدراسات الثقافية، تر: جمال بلقاسم، ص174.

23- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

24- جيمس وليامز : ليوتار نحو فلسفة ما بعد الحداثة، تر: إيمان عبد العزيز، المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، القاهرة، مصر، 2003، ص 13- 14 .

25- عطيات أبو السعود: نيتشه وما بعد الحداثة، ص 47-48.

26- المرجع نفسه، ص51.

27- ليندا هتشيون: سياسة ما بعد الحداثية، تر: حيدر حاج إسماعيل، ص 30.

28- عطيات أبو السعود، نيتشه وما بعد الحداثة، ص52.